المفسر عبد الله بن فوده وأثره الديني في نيجيريا الإسلامية

د. عبد العظيم محمد الأجطل*

الحمد لله الذي تفرَّد بالبقاء، واختص بالعظمة والكبرياء، ورفع بعض خلقه على بعض درجـات، ومنحهم دون عدد من نعمه الظاهرة والباطنات، وشاء للكثيرين منهم الشهرة والظهـور، ولغيـرهم النسيان والغمور، وأصلي وأسلم على سيدنا وحبيبنا محمد الصادق الأمين، وعلـى آلـه وصـحابته أجمعين، ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وبعد....

فهذه شخصية إفريقية مغمورة، وعلم من أعلامها المنسيين، وحكيم من حكمائها الذين لعبوا دورًا مهما في حياة الإسلام والمسلمين، ومناضل من مناضليها الشرفاء الذين قلَّ الزمان أن يجود بمـثلهم، أدعو الله –تعالى- أن يوفقني في تقديمه، بالإضافة للمهتمين بالدراسـات الإسـلامية، والشخـصيات الإفريقية. لدوره البارز والمهم في مستقبل قارتنا السمراء، وبقائها مـستنيرة بنـور الإسـلام، والله المستعان في كل قول و فعل، يسير أو جليل، وله الفضل والجميل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

نسبه ومولده:

يقول الأستاذ أبوبكر محمود[1] في تقديمه لطبع ضياء التأويل في معاني التنزيل: "هو الأستاذ أبو محمد عبد الله بن محمد الملقب بفودي بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد بغرد بن جـب بـن محمد سنبو بن أيوب بن ماسران بن بوبا بابا بن موسى جكل"[2].

وقبيلته أهل ثور، يرجع أصلهم إلى بلاد (فوت ثور) الواقعة غرب بلاد نيجريـا، وهـي أصـل الفلانيين، سبقوا الفلانيين إلى بلاد الهوسا، أي: نيجريا اليوم بسبع سنين، اختلف في أصلهم الأول فقيل :من نصارى الروم. وقيل: من بنى إسرائيل، وصلهم الفتح الإسلامي إبان انتشار الإسلام في إفريقيا،

* جامعة 7 أكتوبر – كلية المعلمين – مصراتة – ليبيا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

فآمـــن ملكهم وتـــزوج ابنته عقبة بن نافع الصحابي المجاهد -رضي الله عنه- أمير الغرب، فولدت قبيلة فلان المشهورة.

وجد قبيلة المـــؤلف روم بن عيص الذي يرجع نسبـــه إلى نبي الله إسماعيل بن إبراهيم خليل الله - عليه السلام- اهـــ[3] بتصرف.

ولد -رضي الله عنه- "سنة 1179هـــ الموافق 1866م"[4].

نشـــأتـه وتطوُّر حياته:

في بيت علم وصلاح نشأ وترعرع عبد الله بن فوده، الأمر الذي هيأ له ظروف العلم، والعمـــل والإصلاح بصورة أكثر وأكبر، حيث كان أبوه عالما، وأخوه عثمان كذلك، زد علـــى ذلـــك رغبتـــه الكبيرة في الاستفادة العلمية، بفضل النشأة الصالحة التي نشأها ودرج عليهـــا، والتربيـــة الإســـلامية الصحيحة التي ألفتها نفسه وامتزجت بها روحه، فصارت جزءًا لا يتجزأ من حياته المليئـــة بالهـــدى والصلاح منذ الصغر، فتطلعت للعلم والثقافة، ثم أنتجت فكرا وجهادًا، كانا مـــصدر إشـــعاع فكـــري للمسلمين في عصره، وقدوة حسنة يقتدي بها في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وتطبيق مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، وأحكامه بصدق وإخلاص في حياته وبعد وفاته.

وعلى الرغم من صعوبة التلقي العلمي في حلقات تلك الدروس العلمية المنتظمة، وما يكابده طالب العلم من مشاق، وما يواجهه من عقبات في ذلك الوقت، تتمثل في الكتاب المقرر للدراسة، والأسلوب الذي يدرس به هذا الكتاب أو ذاك، فلم تكن هناك كتب مبسطة لتعليم اللغة، ولم يكن لدى الطالب كتاب يبدأ منه ثم يتدرج، ولكنه يتعلم من خلال قراءة الكتب الدينية، ويخوض في قـــراءة كتـــاب صـــعب ؛كالمدونة، أو مقامات الحريري أو المعلقات، بدون أن يكون له أساس في الفقه الإسلامي أو اللغة أو الأدب.

ثم إن طريقة التدريس كانت عبارة عن تلقين الألفاظ ومعانيها باللغة المحلية، وترديدها وحفظهـــا بهذه الطريقة، فلا يجد الطالب فرقا بين ألفاظ المقامات وغيرها، فكلها ألفاظ غريبة لابد من حفظهـــا وحفظ معانيها[5]. على الرغم من كل ذلك، فإن ابن فوده قد قطع هذا الطريق الصعب بفخر واعتزاز، بل وبتفوق ونجاح عظيمين، متمثلا قول الشاعر امرؤ القيس بن حُجر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

ومن ثم فقد ظل ينهل العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره وأول حياته، وهو لا يزال طفـــلاً، فبـــدأ بالقرآن الكريم، فقرأ على والده محمد فوده، وتعلم المبادئ الدينية كما يتعلمها الأطفال في الكتاب، ثم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

بدأ يقرأ على شقيقه الشيخ عثمان بن محمد فوده، بعد أن تعلم قراءة القرآن، وهو إذ ذاك ابن ثـلاث عشرة سنة(6)، فدرس عليه عددا من الكتب في مختلف العلوم والمعارف، بالإضافة إلى مؤلفات الشيخ عثمان نفسه، التي أعطته أساسا متينا في علوم القرآن والحديث والفقه والنحو والتصوف، ووجد بهـا ثقافة تجعله من العلماء في تلك الفترة.

ولكن الشيخ عبد الله بن فوده لم يكتف بهذه الثقافة، فقد أخذ بعد ذلك ينتقل من عالم إلـى آخـر، حسب التقاليد المتبعة في تلك الآونة، فإذا سمع بعالم متخصص في الفقه مثلاً، ذهب إليه وسـمع منه وقرأ عليه تخصصه[7]. وهو في ذات الوقت يعمل مع أخيه عثمان على إحياء السنة وإخماد البدعة، ومحاربة أهل الكفر والضلال، وقد رافقه في جميع رحلاته الجهادية إلى ولايات الهوسا مـن غـوبر وزمفرة قبل إعلان الجهاد[8]، واعظاً مرشدًا أهل الإسلام إلى الطريق الـسليم والمـنهج الـصحيح، ومبشراً وداعياً أهل الكفر والضلال إلى الدين الصحيح والسعادة الأبدية، بالدخول في الدين الإسلامي، دين الفلاح والصلاح.

فكان عبد الله ساعده الأيمن، وأقرب الناس إليه، كاتم سره، ومـنفذ أوامره طيـلة حياته. وصفه ابن أخيه محمد بللو في كتابه (انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور): "بأنه هو وزير الشيخ عثمـان الأكبر، وركنه الأبهر، وشقيقه الأكبر"[9]، إلى أن ضاق بهم أعداء العدل والإسلام، أعـداء الحريـة والسلام ذرعا، فاضطروهم وأتباعهم إلى الهجرة من بلادهم ومسقط رؤوسهم. ثم اضـطروهم مـرة أخرى للدفاع عن أنفسهم ودينهم الذي حوربوا واضطهدوا من أجله، فسلحوا أنفسهم بسلاح آلة الحرب -السلاح التقليدي- بعد سلاح الإيمان بالعقيدة، والمبدأ الذي نشأوا وتربوا عليه.

وفي سنة 1804م، وعندما بدأ الجهاد ضد الهوسا، أصبح الـشيخ عبـد الله واحـدا مـن أهـم المستشارين، والقادة العسكريين[10] الذين لا يقطع برأي دونهم، ولا يفصل في أمر عند غيابهم.

يقول الأستاذ أبو بكر محمود في هذا الصدد: "لقد كان قطب رحى جهاد الشيخ عثمـان، وقائـد الجيوش، وشيخ المـدارس، وإمام المساجد، ومدير السياسة ومؤسسها، ومقيم العدل وبانيه"[11]. أخذوا بعد إعلان الجهاد يحصدون دعاة الأوثان والوثنية، ويجتثون رؤوس النفاق وأهل البدع والضلالات، من الحكام المتسلطين المارقين، وغيرهم من الذيول والأذناب الفاسدين، الذين لايعيشون إلا في مثـل هذه الأجواء الموبوءة، وتهاوت أمام ضرباتهم المحكمة الممالك والدويلات الضعيفة الهزيلة، الواحدة بعد الأخرى. وبذلك انتشر في ربوع تلك المنطقة، وبين شعوب تلك الولايات الإسلام والسلام، والعدل والرخاء، والعلم والثقافة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

وفي سنة 1812م، وبعد أن استكمل الشيخ عثمان فتوحاته فعليا، قسم الإمبراطورية الإسلامية الفتية، بين ابنه محمد بللو وأخيه عبد الله، فحكم عبد الله نصيبه من قواندا[12]، وبذلك أصبح الأمير الفلاني الأول لقواندا[13].

وفي سنة 1817، وعندما توفي عثمان بدون أن يعلن عن خليفته، كان عبد الله بعيداً عن عاصمة سكتو، فعاد مسرعا ليطالب بالزعامة، وبعد أن تم له ذلك، استمر يحكمها حتى سنة 1820م. وبعد ذلك ذهب إلى جهة منعزلة ليكرس حياته للعلم، ويتفرغ للدراسة والكتابة، تاركا الأمور الإدارية وشؤون القيادة لأبنه وابن أخيه، كما فعل الشيخ عثمان ومحمد[14] آل بيته وقرابته الأقربين، فاتبع -رحمه الله- طريقة أسلافه من قبله. ترك الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، من أمور الدولة ورسمياتها، إلى التأليف والتدريس والوعظ والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفاتــه:

كانت وفاته -رحمه الله- "سنة 1240هـ الموافق 1829م في قواندا"[15] عن عمر يناهز الستين سنة، قضاها في خدمة العلم وأهله، ونصرة الإسلام والمسلمين، والقيام بأمورهم على أحسن ما يكون؛ ناصحا معينا، وخادما أمينا.

عصره الذي عاش فيه

لمحة عامــة:

يقتضي الحديث عن عصر ابن فوده، الإشارة أولا إلى أخيه الشيخ عثمان الذي يكبره باثني عشر سنة، وثورته الإصلاحية الإسلامية التي قام بها، ومملكته الإسلامية التي أسسها، وشارك فيها عبد الله بنصيب وافر، حيث "كان مرافقا لأخيه عثمان في عمله الإرشادي، وقائدا للجيش الإسلامي في الجهاد سنة 1804م في أرض الهوسا"[16].

و "كان مولد الشيخ عثمان بن محمد فودى في أواخر صفَر سنة 1168 هـ، الموافق ديسمبر 1754 م بفوت، ووالده محمد الملقب بفودى، ومعناه باللغة الفلانية: الفقيه، ينتمي إلى قبيلة فلانية تسمى تورب، وهي من القبائل الفلانية التي هاجرت من فوت –تقع الآن في السنغال-، إلى أن وصلت تدريجيا بعد سنين إلى غوبر إحدى ولايات الهوسا حيث استقرت"[17]. شبَ الغلام في قرية تسمى طغل، وقرأ القرآن على والده، وبعد أن أكمله وانتهى من حفظه، شرع يتنقل من عالم إلى آخر، يتعلم ويتفقه، حتى أصبح عالما كبيراً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

ومن أشهر العلماء الذين قرأ عليهم وتأثربهم: الشيخ جبريل بن عمرو الذي كان من أكبر العلماء في ذلك الزمان، والذي صاحبه الشيخ عثمان نحو سنة وتأثر به كثيراً، حيث أقر الشيخ عثمان نفسه بذلك فيقول: "إنه أول من قام بهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، وكان كمال ذلك ببركة الله على أيدينا"[18].

وعندما ناهز الشيخ عثمان العشرين سنة، بدأ بحركته الإصلاحية، فكان يدرس للناس، ويعلمهم ويرشدهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم إلى ترك العوائد المخالفة للشرع، وإحياء السنة وإخماد البدع[19].

ولم يزل يناضل في هذا المضمار؛ ينتقل من قرية إلى قرية، ومن مكان إلى آخر، يصحبه في جميع هذه الرحلات الجهادية، لنشر الدين الإسلامي أخوه عبد الله، حتى اشتهر أمره وعلا صيته، وكثرت جماعته، وقويت شوكتهم، حتى اضطر أعداؤهم أن يحسبوا لهم ألف حساب، زد على ذلك طباع الشيخ عثمان، ونفسه القوية التي لم تكن تعرف المهادنة أو المصالحة أو الاستسلام على حساب الدين، فلم يكن يبالي بالملوك والحكام في زمانه، ولم يسر إليهم أو يتودد لهم، كما يفعل غيره من العلماء، حيث كانوا يلتفون حول الملوك، يطلبون الرزق منهم ويسعون في رضاهم، ولما "اشتهر أمر الشيخ، وفد إليه الناس من كل صوب ينتفعون بمواعظه، ويتأدبون بآدابه، ويدخلون في جماعته أفواجا"[20].

كان أول أمير قصد الشيخ أمير غوبرباوا، "فبين له الإسلام الصحيح ونصحه باتباع السنة، وإقامة العدل في بلاده. ولعل أمير غوبر أصغى إليه أول الأمر، ولكنه لما فكر في أمره وقدره، أدرك خطورة هذه الحركة الإصلاحية التي يدعوا لها الشيخ عثمان، فخاف منه وضاق به ذرعا. وقبل أن يتخلص منه وافاه الأجل، فخلفه أخوه يعقوب، وبعده نافتا، وهو الآخر أراد أن يطفئ نور تلك الحركة الإصلاحية، إلا أن مدة ملكه لم تطل فلم يلبث أن قضى نحبه. ثم تولى من بعده ابنه ينفا، وكان كسلفه أو أشد منه كراهية للحركة الإصلاحية"[21]. التي تستهدف تحطيم الفساد والبدع، وإقامة القوانين الإسلامية العادلة المنصفة، ومراعاة حدود الإسلام، والعمل بشرعه.

ولما كثرت المضايقات والتواعدات والمكائد للشيخ وأتباعه، أخذوا في تسليح أنفسهم ضد أعدائهم الذين يتطيرون بهم، وامتلأت صدورهم حقدا وغيظا عليهم ،وعلى شيخهم عثمان، لما كان يتمتع به من احترام وتقدير من جماعته، ولتزايد عددهم في كل وقت وحين[22]. "وهذا أمر طبيعي شاهدناه ونشاهده في جميع حركات الإصلاح في العالم، على مر العصور والأزمان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

وأخيرا اضطر الشيخ عثمان وأتباعه للهجرة، فخرجوا من قريتهم طغل وهاجروا إلى مكان قرب حدود ولاية غوبر يسمى غد، وكان ذلك يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة سنة 1318 هـ، الموافق الحادي والعشرين من فبراير سنة 1804م"[23].

ولما أصبحت هذه الجماعة منعزلة عن غيرها، رأت أن لا بد من اتخاذ إجراءات مهمة ولازمة لتنظيم نفسها، حتى لا يدهمها الخطر المحدق بها من كل جانب، فاجتمع أعضاؤها البارزون الذين من بينهم القائد الثاني لهذه الحركة عبد الله بن فوده. اتفق هؤلاء الأعضاء أولا على أن يختاروا رئيسا لهم، فوقع اختيارهم على صاحب الفضل والنعمة عليهم معلمهم الأول عثمان بن فوده، فبايعوه قائدا وإماما لهم على الكتاب والسنة، وأول من بايعه أخوه عبد الله وابنه محمد بللو، وبعده صاحبه عمر الكم، ثم بقية الجماعة[24].

لاشك أن يساعد هذا الاتفاق، وهذا التنظيم على تغيير مجريات الأحداث، وأن تكسب هذه الحركة الفتية دفعا جديدا بالالتفاف حول مؤسسها الأول، وقائدها المؤمن بربه، المخلص لعقيدته، والمهتم بشعبه، فمن ترقب الأحداث ومستجداتها إلى صنعها، ومن موقف المدافع إلى موقف المهاجم وصانع الأحداث.

وعندما أعلن الشيخ عثمان الجهاد، توالت المعارك بينه وبين ملوك غوبر، حتى أسفرت هذه المعارك عن معركة فاصلة يقال لها معركة (كتو)، التي انتصر فيها الحق على الباطل انتصارا باهرا، وهو الوصف الذي وصفها به محمد بللو نفسه، لأن عدوهم جهزها تجهيزا قويا من حيث العدد والعدة، في حين كان الشيخ عثمان وأتباعه في قلة من العدد والعدة بالنسبة إليهم[25].

ولا غرابة أن يزيد هذا الانتصار العظيم على قوى الشر والفساد من حماس المسلمين، وأن ينشطوا لنشر دينهم ومحاربة من يخالفهم، من الذين لا يملكون من الإسلام إلا اسمه، وأن تتطلع نفوسهم إلى المزيد من الانتصارات، وهدم البدع والضلالات.

وبعد تلك المعركة التي وصفها أحد قادتها، الشيخ عبد الله بن فوده بهذه الأبيات من قصيدة له يقول فيها:

"فشتت جمعهم وهم عطاش حيارى مثل غوغاء الجراد[26]
قتلناهم وحزنا كل مال لهم تركوه منثورا بواد
ففر بلا التفات ينفا يعدو أمام خيوله تعدو بداد[27]
فأنقذه من الموت المتاح تعلقه على عرف الجواد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com www.manaraa.com

سواد الليل صار لهم حصونا فبات ولم يذق طعم الرقاد"[28]

بعد هذه المعركة التي أظهرت أولياء الرحمن على أولياء الشيطان، أخذت الحركة الإصلاحية الفذة في الامتداد والانتشار لبث نور الإسلام الصحيح، وإخراج أهله من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى المعرفة، وبما أن الشيخ عثمان وأتباعه لم يكن هدفهم إلا الإيمان بالله والتمسك بالدين، وليس السلب والنهب تحت شعار الجهاد، لم يعتمدوا على الجهاد وحده في نشر الإسلام، بل سلكوا طريق الدعوة في أغلب الأحوال، ولم يلجؤوا للجهاد بالقوة إلا عند الضرورة[29]، لذلك كتب الشيخ عثمان إلى ملوك الهوسا يبين لهم موقفه ليكونوا على علم، وذكر لهم أنه عازم على إحياء السنة المحمدية، وإخماد البدعة الشيطانية، وأمرهم أن يخلصوا لله دينه، وأن يتبرؤوا من كل ما يخالف الشرع. فوقعت أوامره في آذان صماء، ولم يجد كتابه قبولا حسنا من الأمراء، فمنهم من مزق الكتاب، ومنهم من توعد الكاتب وهدده[30]، فأعلن عليهم الجهاد.

وعندما أخذت معارك الشيخ عثمان شكل الفتح الإسلامي المنظم، "بدأ بمدينة (كانوا) فهزم أميرها، ثم هاجم إمارة زاريا وفتحها سنة 1810م"[31].

وبعد أن تم الانتصار على كل هذه الإمارات والممالك، ودخولها تحت المملكة الإسلامية الجديدة مملكة سكتو وهي: "مملكة في السودان بين النيجر الأدنى والبنيوي، مستوية في الشمال، مضرسة في الجنوب، يرويها نهرا سكوتو، وكومادوقو من بحيرة تشاد، هواؤها ناشف في الشمال، كثير الرطوبة في الجنوب، عدد سكانها حوالي (10) ملايين نسمة من الهوسة، والبهل، والتوكولور، والسونغاي، أكثرهم مسلمون، أعظم المدن فيها: كانو أورنو، سكوتو نكفي، أبد يسانغة، وياقوبا، وغوبى، كما شملت هذه المملكة كل المنطقة الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد"[32].

لهذه المملكة الناشئة وضع الشيخ عثمان نظاما إداريا دقيقا، خاضعا للنظم الإسلامية السليمة، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ولغة الثقافة أيضا، ثم رأى أن الأليق به حلقات العلم والدرس التي اشتاق إليها، وأن يتولى زمام القيادة وزيريه: ابنه محمد بللو الذي ولاه على البلاد الشرقية، وأخوه: عبد الله الذي ولاه على البلاد الغربية، وبذلك كان عبد الله أول أمير فلاني على قواندا[33]، وأمرهما بإقامة العدل بين الناس، وإخلاص النية، وصدق العزم. وفرغ نفسه للتدريس والوعظ والتأليف، كان ذلك في سنة 1227هـ الموافق 1813م. واستمر الأمر كذلك علم وعمل، إخلاص وعدل، إلى أن توفي الشيخ سنة 1232 هـ الموافق 1817م. وعمره ثلاث وستون سنة[34]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com www.manaraa.com

قضا ها في محاربة البدع والضلالات، ونشر الإسلام وقتال خصومه ومحاربتهم، وخدمة العلم وأهله. كما يعتبر ضريحة في سكوتو مزارا للمسلمين حتى الآن[35].

لقد ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية، ولغتها العربية في الدولة الإسلامية الفتية التي بنيت دعائمها، وأسست قواعدها على أساس ديني إسلامي صحيح، من حيث إن هذه المملكة الواسعة لا بد أن يكون لها ديوان أو عدة دواوين، ولا بد أن تكون لها محاكم شرعية، إلى غير ذلك مما تتطلبه الدولة المسلمة. زد على ذلك أنه لابد لهذه الحكومة من عدد من المثقفين الذين يمكنهم أن يقوموا بإدارة تلك الدواوين.

وبما أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية لهذه الدولة الفتية، فلا بد إذن أن تهتم بها حكومتها المسلمة وتثقف بها أبناءها، وقد قامت بذلك خير قيام، فشجعت العلماء على فتح أبواب بيوتهم على مصاريعها لتدريس الدين واللغة العربية[36]، ومن جملة هؤلاء العلماء الشيخ عثمان نفسه، الذي ترك الأمور السياسية والعسكرية لغيره، وأخذ في تعليم وتثقيف أبناء مملكته الفتيَّة.

إن هذه الحكومة لم تفتح مدارس نظامية على النسق المتعارف عليه حاليا، بل كان العلماء يتطوعون لذلك بدون مقابل، ولا يبتغون بذلك إلا وجه الله تعالى، وكان العالم أو الفقيه الذي لم يفتح باب داره لطلبة العلم، كان يعلم على الأقل أصحابه وأهل عشيرته[37]، وبذلك نشطت حركة التعليم، وازدهرت الثقافة الإسلامية واللغة العربية، التي أصبحت لغة الثقافة والتعليم، ولعل مرجع ذلك إلى العناصر التي تسير دفة الأمور في هذه الدولة، حيث إن الوزراء والحكام في هذه الدولة كانوا من العلماء[38].

أضف إلى ذلك التعطش الديني لهذا الشعب، خاصة بعد أن وجدوا من أنقذهم من الحكام الذين لا يعرفون عن الإسلام إلا اسمه، وساروا خلف زعيم؛ الإيمان بالله عقيدته ومذهبه، والإخلاص للوطن ديدنه، وحب شعبه مبدؤه، والعدل بين أبناء وطنه سجيته وغايته.

كثرت المدارس غير النظامية وزاد عدد المقبلين عليها، وكثر العلماء وتنوعت مجالسهم العلمية، لا في سكوتو وحدها التي أصبحت في تلك الآونة عاصمة الدولة، ومركزا جديدا للعلم والثقافة، بل في المراكز الأخرى مثل: قواندا، وكنو، وكتثة، وزكزك[39] وغيرها، فازدهرت اللغة والثقافة العربية، وكذلك الدين الإسلامي في هذه البلاد، قبل أن تتسرب إليها الديانة المسيحية والثقافة الأوروبية الحالية[40]، على أن هذا الازدهار الذي شهدته هذه الثقافة في تلك الفترة، لم يكن متوافرا في الفترة السابقة قبل ظهور مملكة سكتو، وإن كثر عدد العلماء في ولايات الهوسا ومملكة البرتو[41]. ولكنهم لم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

يستطيعوا الوقوف في وجه الحكام، والأمراء العابثين الذين يكرهون العلم وأهله، والإصلاح والقائمين عليه، وقد فعلوا ذلك مع الشيخ عثمان وأتباعه من الذين اهتدوا، وتسلحوا بالعلم والإيمان.

وعلى سبيل المثال: فإن "عدد العلماء الذين جمعهم سلطان غوبرباوا في عيد الأضحى للمناظرة مع الشيخ عثمان في سنة 1202 هـ الموافق 1788 م كان فوق الألف"[42]، وإذا كان عدد العلماء في ولاية غوبر التي لم تكن ولاية مسلمة كلها قد بلغ هذا الحد، فلا شك أن العدد يكون أكثر في ولاية مثل:كنو وكشنة، لأهميتهما العلمية والتجارية، ولأن صلتهما بالعالم الإسلامي كانت أكثر من بقية الولايات[43] الأخرى؛ القريبة منها والمجاورة لها.

لكن هؤلاء العلماء الأجلاء قد اكتفوا بالتدريس لأقاربهم وآل بيتهم ؛كما فعل والد الشيخ عثمان، أومن تقصَّدهم من أبناء قراهم وسكان مدنهم.

ثقافته وآثاره العلمية

عاش ابن فوده حياة زاخرة بالعلم والمعرفة منذ كان طفلا، وحتى يفع ورشد، ثم شاب واكتهل، إلى أن انتقل إلى جوار ربه مغفورا له.

قضى مراحل حياته على اختلافها في طلب العلم والتحصيل، تدفعه إلى ذلك الرغبة في العلم والتعليم، والآمال العظام للوصول إلى أرفع الدرجات وأسمى الغايات، تشجعه في بداية حياته أسرته التي فطنت لفضل العلم والإيمان، فاغترفت من رحيق كأس العرفان، حيث "قرأ القرآن على أبيه، ثم انتقل إلى أخيه الأكبر الشيخ عثمان، وكان صنوه بينهما نحو من اثنتي عشرة سنة، فتركه أبوهما في يده وهو في سن الثالثة عشرة"[44].

أخذ عن أخيه عثمان كثيرا من العلوم والمعارف، فدرس عليه العشرينيات والوتريات[45] والشعراء الستة[46]، وعلم التوحيد من الكتب السنوسية وشروحها، وأخذ عنه الإعراب من الأجرومية والتحفة والقطر، وأخذ عنه علم التصوف الذي للتخلق والذي للتحقق، وأخذ عنه التفسير والفقه، والحديث وعلم الحساب.

ومن مؤلفات الشيخ عثمان و"توا ليفه المفيدة العربية والعجمية، فما ألف كتابا من أول تواليفه إلى الآن، إلا كنت أول من نقله عنه غالبا، وصحبته حضرا وسفرا ما فارقته منذ أن حصل لي الآن قريب من خمسين سنة، والحمد لله على ذلك"[47].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

هذه هي حياة العلم والعلماء التي عاشها عبد الله بن فوده، فأكسبته علما غزيرا، انعكس على حياته تأليفا وبحثا، وحكمة وجهادا، فلم يكن صاحبنا مفسرا فقط، أو فقيها فقط، إنما هو الحكيم المثقف الذي ألمَّ بأطراف العلوم المختلفة، ثم جمع تلك الأطراف وبرع في جميعها، فأفاد منها واستفاد الكثير -شأنه شأن كبار العلماء أمثال؛ الإمام الغزالي والإمام السيوطي- ولا عجب أن تكون هذه حياة من شب على طلب العلم والمعرفة، وسعى إليها حثيثا، أن يبرز في سائر العلوم، "كان -رحمه الله- العالم العلامة، النظارة الفهامة، شيخ الشيوخ، المصنف المفسر المحدث، الراوية الحافظ، المقرئ المجوِّد، النحوي اللغوي البياني المتفنن، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب، الراتع من كل علم مرعاه الخصيب، الخطيب الشهير، آخر السادات الأعلام وخاتمة النظار، ذا التحقيقات الشهيرة البديعة، والأبحاث الأنيقة الغريبة، المتفق على علمه وهديه ممن قل سماح الزمان بمثله"[48].

ومن البديهي أن عالما هذه أوصافه ومميزاته، أن يكون أبرع أهل زمانه وأفضل أقرانه، وكيف لا يكون ذلك وقد درس كل هذه الكتب، والمؤلفات على أخيه الشيخ عثمان ،الذي شهد له الأولون والآخرون بالفضل والعلم، ولا شك أن تسهم هذه الكتب في ثقافة الشيخ عبد الله، وأن يجد بها ثقافة تجعله من العلماء في ذلك العصر.

ولكن الشيخ عبد الله لم يكتف بهذه الثقافة، فقد جعل بعد ذلك ينتقل من عالم إلى آخر حسب التقاليد المتبعة في تلك الآونة، فإذا سمع بعالم متخصص في الفقه مثلاً، ذهب إليه وسمع منه[49] العلم الذي يدرِّسه، وتلقى عنه الفن الذي تخصص فيه، حتى استطاع أن يأخذ العلم والمعرفة عن عدد من مشاهير العلماء، وأصبح بالتالي واحدا منهم، تبحَّر في جميع العلوم وفي شتى الفنون. "ومن الكتب التي درسها عليهم في النحو والصرف: شذور الذهب وشروحه، بلوغ الأَرب، وخلاصة ابن مالك وشرحها، البهجة المرضية للسيوطى، والمنهج السالك للأشمويى، والفريدة للسيوطي، والتحفة الوردية وشرحها للشيخ محمد الوالي. وفي البلاغة درس: تلخيص المعاني، وألفية المعاني مع شرحه، والجوهر المكنون مع شرحه، وشرح النقاية للسيوطي. وفي الفقه وأصوله: شرح مختصر خليل، والورقات لإمام الحرمين والقوافي، والكوكب الساطع، وجمع الجوامع مع شرحه. وفي الأدب: مقامات الحريري. وفي العروض والقوافي: الرامزة والدرر اللوامع للطاهر"[50] إلى غير ذلك من الكتب والمؤلفات المتعددة. ثم إن الشيخ عبد الله أثناء تنقله وترحاله بين يدي العلماء، ربما درس كتابا على واحد منهم، ثم درسه مرة أخرى على غيره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

كل ذلك يؤكد أن الثقافة التي نالها الشيخ عبد الله، كانت بدون شك ثقافة عالية واسعة النطاق[51]، لما تمتَّع به من استعداد فطري أهله لذلك، واستعداد ذهني أهله لهضم تلك الثقافة، أضف إلـى ذلـك طموح نفسه لتحصيل العلم والمعرفة، وتطلعه لآمال عظيمة تقصر دونها الهمم، وتكل دونها العزائم.

ومن ثم فقد صار عالما بالفقه وأحكامه، واللغة وشواردها، ومبرزا في التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، ملما بالنحو والصرف والبلاغة والأدب والعروض والقوافي، والتوحيد والتصوف والأصول. وصح وصفه بالفقيه، اللغوي، المفسِّر، النحوي، الأديب، الشاعر، العروضي، المـتكلم، المتـصوف، الأصولي.

شيـوخـه:

قلما تتوافر الرعايـة العلمية للإنسان، وهي وإن توافرت، فغالبا ما تكون على حساب شيء آخر -كضيق في العيش مثلاً-. أما صاحبنا فقد توافرت له هذه الرعاية، على سعة رزق ورغد في العيش، ذلك أنه درس كتاب الله –تعالى- في بداية حياته على من تولى توجيهه وتربيتـه، ويحـرص علـى مصلحته، حيث إن طبيعة الآباء الكفاح والحرص من أجل أبنائهم ومصالحهم.

وفي سن الثالثة عشرة تركه أبوه لأخيه الشيخ عثمان "يقول هو عن نفسه في كتابه إيداع النسوخ: ومن شيوخي الذين أخذت العلم عنهم أمير المؤمنين شقيقي عثمان بن محمد، وأمنا حواء بنت محمد بن عثمان بن حم بن عال"[52].

ومن شيوخه: الشيخ جبريل بن عمرو الذي كان شيخا لأخيه عثمان أيضا.

ومنهم أيضا: الشيخ أحمد بن غار، هذا عدا شيوخه الكثيرين كما يقول الأستاذ أبـوبكر محمـود: "يقول صاحب كتاب إنفاق الميسور: أخذ عن أخيه القطب عثمان، ووازره وكفاه المهمات من أمـره، وعن الشيخ جبريل بن عمرو، والشيخ أحمد بن غار، وغيرهم"[53] من جهابذة العلم والمعرفة الـذين تنقل بينهم وأخذ عنهم.

ومنهم الشيخ محمد المغوري، يقول عبد الله بن فوده: "إن الشيخ محمد المغوري كـان مـشهورا بتعليم المختصر في بلادنا شهرة الشمس، وكل من لم يقرأ المختصر عنه في بلادنا فكأنه لم يقرأ، فمن الطبيعي إذن أن يقصد إليه عبد الله ويقرأ عليه المختصر، الجزء الأول، وكان ذلك سنة ألف ومائتين من الهجرة، ألف وسبعمائة وخمس وثمانين ميلادية"[54].

ومن شيوخه أيضا: الشيخ محمد سمبو بن عبد الرحمن، تلميذ الشيخ المغوري، الذي قـرأ عليـه الجزء الثاني من مختصر الخليل، بعد قراءته للجزء الأول على الشيخ المغوري[55].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

ومن شيوخه أيضا: الشيخ المصطفي بن الحاج عثمان، ذلك أن عبد الله "كان قد قرأ الكوكب الساطع عن الشيخ جبريل، فأخذه مرة ثانية من المصطفي بن الحاج عثمان، وأفاده هذا الشيخ بأشياء لم يفهمها عند الشيخ جبريل.

ويقول الشيخ عبد الله: إنه أخذ العلم عن عدد كثير من الشيوخ -لا يستطيع أن يحصيهم- وكم عالم أو طالب علم أتانا من الشرق فاستفدت منه مالا أحصيه"[56].

وأخيرا فإن من شيوخ عبد الله بن فوده: خاله وعمه الشيخ محمد بن راج بن مؤدب، الذي كان متخصصا في تدريس البخاري، كما أن الشيخ جبريل كان مشهورا بتدريس الكوكب الساطع للسيوطي[57].

وهكذا يتضح أن كثرة العلماء وتوزع التخصصات العلمية بينهم، جعلت ابن فوده ينتقل من عالم إلى آخر، ومن قرية إلى أخرى طلبا للعم والاستفادة.

مؤلفاته:

لعبد الله بن فوده مؤلفات كثيرة برهنت على غزارة علمه، وعلو مكانته، وطول باعه في ميدان العلم والمعرفة، ولذلك قال الأستاذ أبوبكر محمود: "للشيخ عبد الله كرامات كثيرة، منها غزارة علمه الدالة عليها كثرة مؤلفاته التي لا يقل عددها عن مائة كتاب، مع ما هو فيه من الأشغال الشاقة في وقت الهرج وقلة الراحة"[58]، حيث إنه الرجل الثاني في دولة سكتو الإسلامية. وإليك بعضا من هذه المؤلفات:

أ – الكتب المطبوعة:

1- ضياء التأويل في معاني التنزيل: وهو كتاب في التفسير يقع في أربعة أجزاء، فرغ من تأليفه سنة 1231هـ[59].

2- كفاية أهل الإيمان في تفسير القرآن: وهو كتابه الثاني في التفسير، "يعتبر تلخيصا لما جاء في ضياء التأويل، الذي كان حافلا ببيان القراءات السبع، وبيان أقوال الأئمة الأربعة، وبيان علوم العربية والبلاغة والأصول، وترتيب الغزوات والسرايا وغير ذلك. لخصه مقتصرا على رواية ورش فقط، وعلى مشهور مذهب مالك، والضروري من علوم العربية، وسماه كفاية أهل الإيمان في بيان تفسير القرآن"[60] "أكمله في 7 جمادى الأولى سنة 1238هـ، وفرغ من نسخه في 10 جمادى الأولى سنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

1242هـ"[61]. وهو ما يسميه أيضا: كفاية ضعفاء أهل السودان[62]، والكتاب مطبوع في جزأين من الحجم المتوسط.

3 - إيداع النسوخ: وهو كتاب يتناول حياة عبد الله بن فوده، حيث يذكر فيه قصة حياته وتعليمه وشيوخه، حسب ما يتضح من نقول الدكتور شيخو أحمد من هذا الكتاب[63].

4 - تزيين الورقات: يبدو أنه ديوان شعر للشيخ عبد الله بن فوده، حيث ضمَّنه ما قاله من قصائد في مختلف الأغراض والمناسبات[64].

ب - الكتب المخطوطة: في النحو والصرف:

1- البحر المحيط: وهو كتاب نظمه عبد الله بن فوده في النحو وسماه البحر المحيط، عدد أبياته أربعة آلاف وأربعمائة بيت.

2- الحصن الرصين: كتاب في الصرف نظم أيضا، عدد أبياته ألف بيت[65].

وفي التفسير:

1- الفوائد الجليلة: نظم ما في الشوشاوي من علم التفسير[66].

2- مفتاح التفسير: نظم ما في الإتقان والنقاية من علم التفسير للسيوطى[67].

3- سلالة المفتاح نظم.

وفي الفقه وأصول الشريعة:

1- خلاصة الأصول في علم أصول الفقه.

2- ضياء الحكم.

3- ضياء السياسات.

4- تقريب الضروري من علوم الدين.

وله في علم المنطق: مفتاح التحقيق.

وفي العروض والقوافي: له فتح اللطيف.

وفي التوحيد وعلم الكلام:

1- نظم العقيدة للسيوطي وشرحها للسنوسي.

2- نظم النقاية للسيوطى.

3- مفتاح الأصول[68].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com www.manaraa.com

4- وله كتاب في حقوق الإخوان.
5- وكتاب في دفع الوسواس.
6- ضياء أولى الأمر والمجاهدين.
7- ضياء السلطان.
8- ضياء السنة.

لقد عكف العلماء الذين من بينهم عبد الله بن فوده على التعليم والبحث العلمي، فألفوا في شتى العلوم والفنون، ذلك لأن "مؤلفات الشيخ عثمان، وعبد الله، وبللو وغيرهم كثيرة جدا. وقد أورد الدكتور مرري لا ست في كتابه the sokoto caliphate قائمة ببعض تلك المؤلفات. فذكر ثمانية وثمانين مؤلفا من مؤلفات الشيخ عثمان، وسبعة وسبعين للشيخ عبد الله، وثمانية وتسعين للشيخ بللو"[69].

هذه الثروة من الثقافة الإفريقية الأصيلة، تظل وللأسف الشديد مغمورة، لم تصلنا ولم نعرف عنها إلا النزر اليسير، كل ذلك بفضل من اقتحموا تلك الديار، وطمسوا تلك المعالم الثقافية الرائدة من مدعي الحضارة والتطور، بحيث لم نستطع التعرف على قادة حركة الإصلاح، والثورة الإسلامية في مطلع القرن التاسع عشر إلا بصعوبة بالغة، فضلا عن الوقوف على مؤلفاتهم وآثارهم العلمية، حيث إننا لم نستطع حتى الآن معرفة جميع مؤلفات عبد الله بن فوده، فضلاً عن معرفة ما تعالجه بعض هذه المؤلفات.

ورغم المشاغل السياسية والعسكرية من تدبير أمور الدولة، ومحاربة أهل البدع والضلالات، كان عبد الله بن فوده شاعرا كثير الإنتاج، ومؤلفا للكتب بالعربية، والفلانية، ولغة الهوسا، كان أحد أعماله عن حياة أخيه عثمان، وما قام به من أعمال طوال حياته الحافلة بنشر الدين الإسلامي، وما شاهده معه أثناء رحلاته لنشر الدين الإسلامي في ولايات الهوسا؛ من غوبر، وزمفرا[70]، وغيرها من الولايات المجاورة التي قصدها الشيخ عثمان، ثم إعلانه الجهاد، وانتصاراتهم على أعدائهم، ثم إرساء نظام الدولة الإسلامية الجديدة، إلى أن تفرغ الشيخ عثمان للتأليف والوعظ والتدريس، وحتى وفاته سنة 1817م.

شعره وجهاده:

كان الجو السياسي والديني والاجتماعي مملوءا بالاضطرابات الشديدة في أوائل فترة مملكة سكتو، وكانت الحروب الكثيرة تدور رحاها في أنحاء المملكة والممالك المجاورة لها. فكانت البيئة كلها شديدة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

الاضطراب، قليلة الاستقرار[71]، ولاشك أن يهيئ هذا الجو قرائح الشعراء، ويستحثهم على إقراض الشعر وإنشاده، خاصة وأن انتصاراتهم الحربية تزداد كل يوم، ومملكتهم تتوسع من حين لآخر.

كان الشعراء الذين من بينهم عبد الله بن فوده يسجلون انتصاراتهم العسكرية المتتالية في أشعارهم، ويصفون معاركهم، وقوتهم في هذه المعارك، وتخاذل خصومهم وضعفهم أمامهم. ولذلك كثر في هذه الفترة الشعر الذي يمكن تسميته بشعر الحرب أو شعر الجهاد[72]. الـذي يـستهدف إثـارة حمـاس المجاهدين للدفاع عن دينهم وعقيدتهم، والنيل من أعدائهم وخصومهم، وتسجيل النصر والغلبة علـى أعدائهم.

كذلك تناول الشعراء الشعر التعليمي في ذلك الوقت، فنظموه في مختلف الفنون العلمية؛ من نحو وصرف، وفقه وأصول وغيرها... حيث كانت تساعدهم كثيرا على تدريس الـمادة العلمية، والسبب في ذلك أن الشعراء في ذلك الوقت هم أنفسهم العلماء، وأكثرهم رجال الدولة، والقائمين عليها في نفس الوقت، فكان العالم ينظم المسائل الفقهية أو اللغوية، ثم يدرسها لطلبته، فيجد الطالب سهولة في حفظ ذلك، لأنه كلام موزون مقفي، ثم إن النغمة والإيقاع من معينات الحفظ والتذكر[73]. وأشهر هـؤلاء العلماء والشعراء في ذلك الوقت: عبد الله بن فوده، ومحمد بللو، والشيخ محمد سمبو، وغيرهم....

وعبد الله بن فوده في مجال الشعر التعليمي، لا يشق له غبار ولا يقترب مـن سـاحته منـافس، ومنظوماته المتعددة في مختلف المجالات والفنون العلمية تشهد بذلك، ثم إنه قال الشعر في مختلـف أغراضه ومناسباته، وإن كان معظم الشعراء في عصره "قد أكثروا من شـعر الجهاد والمدح، كمـا أكثروا في الوعظ والإرشاد، وفي الشعر التعليمي عامـة، ذلـك أن الظـروف الـسياسية والدينيـة والاجتماعية في تلك الحقبة، كانت تقتضي إنتاج ذلك النوع من الشعر"[74] وهذا مـا أملتـه علـيهم ظروف المجتمع السيئة، من الفساد الديني، والتدهور الأخلاقي، والجهل الذي تفشى وانتشر بين طبقات الشعب، والفقر المدقع الذي يعانيه هذا الشعب.

كل هذه الظروف أملت على عبد الله بن فوده وغيره من الشعراء، الإقلال من الشعر في بعـض الأغراض مثل: الهجاء والغزل وغيرها، والإكثار من شعر الجهاد، والشعر التعليمي، والشعر الديني، وشعر المواعظ.

وبعد أن هدأت الأمور واستقرت الأحوال باستكمال الانتصارات المؤزرة، والقضاء على أمـراء الفساد والضلال في تلك المنطقة، أخذ العلماء الشعراء يتجهون إلى تعليم الشعب وتثقيفه، اتجهوا إلى الجهاد الأكبر بعد الأصغر، فبعد أن تم تأسيس الدولة على أسس دينية سليمة، ونظم سماوية رفيعـة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

قاموا على ساق الجد ينشرون الثقافة العربية الإسلامية، وكان يشترك في ذلك رجال الدولة والشعب على حد سواء، كل حسب طاقته، فمنهم من قام بالتأليف والتدريس والوعظ؛ كالشيخ عثمان نفسه، وأخيه عبد الله، وابنه محمد بللو، بالإضافة إلى مهام الدولة، ومنهم من اكتفي بالتدريس والوعظ وهم كثيرون.

ومن ثم عكف جمعٌ من العلماء على تأليف الكتب الدينية، وكتابة الرسائل والمنشورات التي تعالج المسائل الدينية والاجتماعية[75]، والتي تسهم في بناء صرح المجتمع الإسلامي الجديد، الذي أرسيت دعائمه على أنقاض الإمارات والممالك المتداعية، التي أورثت المجتمع مساوئ كثيرة، وخلَّفت فيه آفات خطيرة، ظل يعانى منها سنين عديدة.

ولقد أنتج العلماء والأدباء في تلك الفترة كثيرا، فألفوا كتبا ورسائل عالجوا فيها كثيرا من المشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية، وإن كان أكثرها تآليف علمية، وبما أن لبعض العلماء ميول أدبية فإنها قد ساعدتهم على التأليف في مجال الشعر والنثر[76].

نماذج من شعره:

كان عبد الله عالما وأديبا، سخر هذا العلم والأدب لخدمة الإسلام والمسلمين من بنى وطنه، فقد كان شاعرا كثير الإنتاج، ومؤلفا كتب بالعربية والفلانية ولغة الهوسا[77] أيضاً.

وهو كغيره من الشعراء الذين فرض عليهم المجتمع قرض الشعر في أغراض معينة، والإقلال من بعضها الآخر، ولكنه قد قرض الشعر في المناسبات المتفاوتة والأغراض المختلفة، التي من بينها: المدح، والرثاء، والحماسة، وغيرها....

ففي غرض المدح يقول مادحا شيخه الشيح جبريل ابن عمرو، وأخاه عثمان في أبيات من قصيدة له جاء فيها:

"شمس الضحى بزغت بغرب فانتحت للشرق تشرق في قريش وخزرج
متفنن متبحر في علمه متعطف متلطف للمعفج[78]
شجع طليق الوجه هين ليـن للمسلمين ومزدر للعمهج[79]
عثمان من قد جاءنا في ظلمة فأزاح عنا كل أسود دجدج"[80]

وفي غرض الرثاء: يرثى شيخه محمد سمبو بأبيات من قصيدة يقول فيها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

"فيا للمسلمين لبيك خالـــي محمد سمبو ذو علم وغـــالي
فقد حمدت شمائله قديـــما بعلم والتقى قبل ارتـــحال"[81]

وفي غرض الحماسة -شعر الجهاد- يقول في أول معركة كبيرة خاضتها هذه الجماعة المؤمنـــة وهي معركة كتو:

" بدأت بحمد الله والشـــكر يتبـــع على قمع كفار علينا تجمعـــوا
ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من بلادهم والله في الفضل أوسع"[82]

وفي الشعر التعليمي: قال عبد الله بن فوده في أول كتابه المنظوم الذي سماه الحصن الرصين في الصرف:

"الحمد لله الـــذي تعرفـــــا إلى عبـــــاده بمـــا تصـــــــرفا
وأنطق اللغـــات في البـــوادي البلغـــاء اللســـــن الهـــــوادي
وعم بالروائـــح الأنـــــاد[83] مع الغـــوادي المجتدي والجادي
إذ أرســـل الرســـل للعبـــــاد يرشـــدهم مهايـــع الرشـــــاد[84]
محمد ســـيد كـــل نـــــــاد وأفصـــح كل ناطـــق بالضـــاد
صلى عليه ذو الأيادي الهادي وآله وصحبـــه الزهـــــــاد"[85]

هذه نماذج موجزة ومختصرة من شعر عبد الله بن فوده باللغة العربية، وقد قـــال الـــشعر بلغـــة المجتمع، اللغة العامية أيضا. وعثر له على ثلاث قصائد بلغة الهوسا، والتي ما تزال باقية[86] حتـــى الآن. زد على ذلك ما قاله في الوعظ والإرشاد، والحكم والأمثال، والزهد والتصوف، إلى غير ذلك.

ومن خلال تفسيره يطلعنا على نموذج من شعره ويبصرنا بشيء منه. جاء ذلك في سورة النمـــل الآية 18 عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ " إنهم يحطمونكم ولوشعروا لم يفعلوا، كأنها علمت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء و(لا يحطمنكم) أي :لا يقفوا حيث يحطمونكم، وهو جواب للأمر، ودخول النون لكونه نـــهيا في المعنى أو بدل من الأمر، لأنه في المعنى نهي لأن (ادخلوا مساكنكم) في معنى لا تكونوا حيث كنتم. وفي هـــذه الآية من إيجاز القصر، وهو قلة الألفاظ مع كثرة المعنى لا لحذف، ما تحار فيه العقول، وفيها أحـــد عشر معنى من أنواع الكلام: النداء والكنايـــة والتنبيـــه، والتـــسمية والأمـــر والقـــصة، والتحـــذير والتخصيص، والتعميم والإشارة والعذر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

فراعت النملة خمسة حقوق: حق الله ورسوله وجنده، وحقها ورعاياها، وقد نظمت كل هذا في المفتاح وسلالته بقولي مثلا لآيات القصر:

كآية العدل مع الإحسان وآية النمل على معان
نادت بيا كنَّت بأي نبهت بها وسمت باسم نمل أمرت
وبادخلوا قصَّت بسكنى حذَّرت حطم سليمان فخصَّت عمَّمت
جنوده ثم بهم أشارت بنفي علم عذرت فراعت
حق الإله والرسول ولها وجنده ونافعا عيالها"[87]

كذلك لم يكن عمل ابن فوده مقتصرا على العلم والأدب والتأليف فحسب، -ولو كان كذلك لكفاه شرفا وفخرا- بل تجاوزه إلى السياسة والوزارة، وإلى الحرب والجهاد، وقيادة الجيوش ضد أعداء الإسلام والمسلمين، ومن ثم فقد كان شخصيَّة مهمة جدا بالنسبة للمسلمين عامة، ولأخيه خاصة.

أما بالنسبة لعامة المسلمين، فقد كان إماما لمساجدهم وشيخا لمدارسهم، ومقيما للعدل والأمن بينهم. ينشر بينهم نور العلم والمعرفة بدروسه ومواعظه، وكذلك بكتبه ومؤلفاته.

وبالنسبة لأخيه وأستاذه الشيخ عثمان، فقد كان عقله المفكر ودرعه الواقي وسنده القوي، كفاه المهمات الجسام أيام حكمه، وتكفل له بأعباء الدولة، فناضل وكافح، ونصح وآزر، وجد وجاهد ضد أعداء الإسلام وخصومه. يقول الأستاذ أبو بكر محمود في هذا الصدد: لقد كان "قطب رحى جهاد الشيخ عثمان، وقائد الجيوش وشيخ المدارس، وإمام المساجد، ووزير أمير المؤمنين، ومدبر السياسة ومؤسسها، ومقيم العدل وبانيه"[88].

كذلك يذكر صراحة في تفسيره ضياء التأويل في معاني التنزيل، هذا الجهاد الذي قام به، وبين كيف أن النصر دائما للإسلام وأهله، إذا صدق عزمهم وخلصت نيتهم في إعلاء كلمة الله تعالى، والدفاع عن دينه المجيد، وذلك في سورة الحج عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ "حقا إلى يوم القيامة، وقد أنجز الله وعده بأن سلط الله المهاجرين والأنصار على صناديد العرب، وأكاسرة العجم وقياصرتهم وفراعنتهم، وأورثهم أرضهم وديارهم، وذلك مستمر في كل من قام لنصرة دينه إلى يوم القيامة، كما شاهدناه عيانا حين قمنا للجهاد والحمد لله"[89] -تعالى- على ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

أهم نتائج البحث

أولاً: من المعروف أن الدين الإسلامي الحنيف لم ينتشر في نيجيريا وما حولها من الجنوب الإفريقي عن طريق حملات الفتح الإسلامي المنظم، بل كان التجار المسلمون هم أصحاب الدور البارز والفعال في ذلك، ومن ثم فقد أضفي هذا الدين الحنيف نوعا من الترابط الاجتماعي البناء، والقوة الروحية الفاعلة بين أبنائه، وبخاصة لما شعروا بالعزلة والاضطهاد، حين أمروا الناس بالمعروف ونهوهم عن المنكر تطبيقا للشريعة الإسلامية الغراء، إضافة إلى العلاقات الأخرى التي كانت تربط سكان الجنوب بالشمال.

ثانياً: ظهور مملكة إسلامية سنة 1804م. على يد الشيخ عثمان، وأخيه الشيخ عبد الله بن فوده، الذي أوقف نشاط التبشير المسيحي في تلك الرقعة من الأراضي الإفريقية، وعرقلت تلك المملكة تقدمه السريع إلى تلك المنطقة.

ثالثاً: قوة الإسلام والمسلمين في هذه المملكة، مما ساعد على انتشار الثقافة الإسلامية، واللغة العربية، وجعلها لغة الدولة الرسمية. الأمر الذي أدى إلى ظهور علماء، وطلاب علم طوروا البحث العلمي، وعمقوا الدراسة لصالح الدين واللغة.

رابعاً: وجود علماء أجلاء في هذا البلد الإفريقي – نيجيريا- ألفوا في مختلف العلوم والفنون، وساهموا في بناء صرح الأمة الإسلامية الشامخ، ودافعوا عن الإسلام والمسلمين بالعلم والعمل.

خامساً: إن ابن فوده قد ألمّ بأطراف معظم العلوم، واغترف من جميعها، وألف فيها، مما يبرهن على أنه تبحر فيها، وبرز فيها على أقرانه وعلماء أهل زمانه. ولعل تصدره لتفسير الكتاب العزيز الذي لمسناه من خلال مؤلفه (ضياء التأويل في معاني التنزيل) في تفسير القرآن الكريم دليل على ذلك، وهو جزء من هذه الثقافة العالية، والعلوم النافعة التي ألم بها وفهمها وأتقنها، وكان رائد ميدانها، بالإضافة إلى غيرها من الميادين الأخرى التي برع فيها -رحمه الله تعالى- في عصره الذي عاش فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

الهوامش والتعليقات

1- هو أبو بكر محمود قمي أوغمي، نائب قاضى قضاة نيجيريا - مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل لابن فودة مقدمة أبو بكر محمود التي ترجم فيها للمؤلف 1: 2.

2- المصدر نفسه 1: 2.

3- انظر المصدر نفسه1: 3.

4- A history of Hausa Islamic Verse, p, 28.

5- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا شيخو أحمد، ص 87.

6- انظر: المصدر نفسه، ص 84.

7- انظر: المصدر نفسه، ص 85.

8- انظر: Dictionary of African Historical Biography

9- مقدمة طبع ضياء التأويل، 1: 4.

10- انظر: Dictionary of African Historical Biography

11- مقدمة طبع ضياء التأويل، 1 : 5.

12- انظر: Dictionary of African Historical Biography

13- انظر: A history of Hausa Islamic Verse, p, 28

14- انظر: Dictionary of African Historical Biography

15- المصدر نفسه، وانظر أيضا مقدمة طبع ضياء التأويل، 1 : 3 .

16 - A history of Hausa Islamic Verse, p, 28.

17- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 60.

18- المصدر نفسه ،ص 60، 61.

19- انظر المصدر نفسه، ص61.

20- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، شلبي. 6 : 227.

21- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 62.

22- انظر: المصدر نفسه، ص 62.

23- المصدر نفسه، ص 63.

24- انظر: المصدر نفسه.

25- انظر: المصدر نفسه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

26- قال ابن منظور: الغوغاء الجراد حين يخفُّ للطيران واستعير للسفلة من الناس... ويجـوز أن يكون من الغوغاء الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم. لسان العرب مادة غوغ 8 : 444. وانظر القاموس المحيط 3 :161.

27- أي: تجري خيولهم متفرقة من بدد الشيء فرقه، يقال جاءت الخيل بدادا أي: متفرقـة متبـددة لاتلوي على شيء. انظر لسان العرب مادة بدد 3: 178. وانظر القاموس المحيط مادة بـدد 3: 78.

28- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 63 ، 64.

29- انظر: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، 6: 229.

30- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 64، 65.

31- الموسوعة العربية الميسرة ص 1188.

32- حاضر العالم الإسلامي لثروب، م 2 ، 3: 23.

33- انظر: A history of Hausa Islamic Verse, p, 28

34- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 65.

35- انظر: الموسوعة العربية الميسرة، إشراف شفيق غربال، ص 1188.

36- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 81.

37- انظر: المصدر نفسه، ص 82.

38- انظر: المصدر نفسه.

39- انظر: المصدر نفسه.

40- انظر: موجز تاريخ نيجريا آدم عبد الله، ص 37.

41- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 79.

42- يعلق الدكتور شيخو بقوله: ليس معنى هذا طبعا أن أولئك العلماء قد وصلوا إلى درجة عالية من العلم، ولكن المقصود أنهم نالوا شيئا من العلم، يذكر في ذلك الزمن. المصدر نفسه، ص 80.

43- انظر: المصدر نفسه، ص 79 ، 80.

44- مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 4.

45- العشرينيات والوتريات: هي عبارة عن منظومات شعرية في مدح رسـول الله -ﷺ-. انظـر حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا، ص 124.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

46- الشعراء الستة هم: امرؤ القيس (ت 560). وعلقمة الفحل (ت 561). والنابغة الذبيانى (ت: 604). وزهير بن أبى سلمى (ت 609). وطرفة بن العبد (ت : 565)، وعنترة العبسى (ت: 615). انظر أشعار الشعراء الستة الجاهلين، للأعلم الشنتمرى 2: 356.

47- مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص: 4 ، 5.

48- المصدر نفسه، ص 4.

49- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 85.

50- المصدر نفسه، ص 85، 86.

51- انظر: المصدر نفسه، ص 86.

52- مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 4.

53- مقدمة النسخة المخطوطة لضياء التأويل.

54- النسخة المخطوطة لضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 86.

55- انظر: المصدر نفسه، ص 83.

56- المصدر نفسه.

57- انظر: المصدر نفسه.

58- مقدمة طبعة ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 5.

59- انظر: ضياء التأويل في معاني التنزيل، 4: 302.

60- كفاية أهل الإيمان، لابن فوده، 1 : 3.

61- المصدر نفسه، 2: 320.

62- انظر: المصدر نفسه، 1: 319.

63- استنتجت هذا مما نقله الدكتور شيخو أحمد في كتابه حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا عن كتاب عبدالله بن فوده إيداع النسوخ. ففي صفحة 60 ينقل عنه تعرضه لذكر شيوخه الذين من بينهم الشيخ جبريل بن عمرو والشيخ عثمان الذي تتلمذ على الشيخ جبريل أيضاً. وفي صفحة 77 ينقل عنه أهم الكتب والعلوم التي كانت متداولة في ذلك العصر، ودرسها الشيخ عبدالله. ومن صفحة 83 إلى صفحة 86 ينقل عنه تدرج الطالب في دراسته من السهل إلى الصعب، وتخصص بعض العلماء في تدريس بعض الكتب وملازمته للشيخ عثمان، ونقله عنه ما وصل إلى تلك البلاد من كتب، إلى أن يأخذ في حصر شيوخه، وما درس من علوم مختلفة.

64- استنتجت هذا أيضا من تعرض الدكتور شيخو أحمد لبعض ما قاله عبد الله بن فوده من قصائد في مختلف الأغراض والمناسبات في كتابه حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ففي صفحة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com www.manaraa.com

133 وما بعدها ينقل عن تزيين الورقات مطلع قصيدة في مدح شيخه جبريل بن عمـــرو، وفـــي صفحة 138 وما بعدها ينقل عن ابن فوده في تزيين الورقات قصيدة في الرثاء، وفي صفحة 140 وما بعدها نقل عنه جزء من قصيدة أخرى في الرثاء أيضاً، ومن صفحة 143 إلى صـــفحة 151 ذكر له مطلعين لقصيدتين في شعر الجهاد، وفي صفحة 157 مطلع لقصيدة في الشعر التعليمـــي، وفي الدعاء، وفي التوسل، مصدرها جميعا كتاب تزيين الورقات.

65- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا، ص 152.

66- الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة: لحسين بن علي الرجراجي الشوشاوى، وهو كتاب مختصر في الفقه، مشتمل على عشرين بابا، كشف الظنون، 2 : 1296.

67- النقاية: كتاب مختصر في أربعة عشر علما، كشف الظنون، 2: 1970.

68- انظر: مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 5.

69- حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا، ص 123.

70- انظر: Dictionary of African Historical Biography.

71- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا، ص 142.

72- انظر: المصدر نفسه.

73- انظر: المصدر نفسه، ص 152.

74- المصدر نفسه، ص 158.

75- انظر: المصدر نفسه، ص 159.

76- انظر: المصدر نفسه، ص 125.

77- انظر: Dictionary of African Historical Biography.

78- المعفج: هو الأحمق الذي لا يضبط الكلام أو العمل. انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة: عفج 1: 414. ولسان العرب لابن منظور مادة: عفج 2: 325.

79- العمهج: جمع عماهيج. وتطلق على: المتكبر، المبتدع، المختال، وهي المرادة هنا. وله اطلاقات أخرى؛ كالطويل والممتلء لحما والسريع. انظر القاموس المحيط مادة عمـــج :1: 415. ولـــسان العرب مادة عمهج 2: 329.

80- دجدج: الليل إذا أظلم، ودجدج: أسود حالك، حركة اللغة العربيـــة وآدابهـــا، ص 134، 135. وانظر في معاني الكلمة تاج العروس للزبيدي، 2 : 37 ، 38 ، 101. والقاموس المحيط مادة دجٌّ 1 : 393. ولسان العرب مادة دجج 2 : 265.

81- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 138.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

82- المصدر نفسه، ص 147.

83- الأناد الطيبة الرائحة، والندُّ ضرب من الطيب يدخن به. وضرب من الأدخنة أيضا. انظر لسان العرب مادة ندد 3: 421.

84- مهايع جمع مهيع، وهي الأشياء الواضحة البينة، انظر لسان العرب مادة هيع 8: 379. والقاموس المحيط مادة هيع 3: 143.

85- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 152.

86- انظر: A history of Hausa Islamic Verse, P28

87- ضياء التأويل في معاني التنزيل، 3: 169.

88- مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 5.

89- ضياء التأويل في معاني التنزيل، 3: 93.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المراجع المطبوعة والمخطوطة:

1- الأعلم الشنتمري أشعار الشعراء الستة الجاهليين اختيار يوسف بن سليمان بن عيسى، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى نشردار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان، ط 2، 1981.

2- الألوري آدم عبدالله، موجز تاريخ نايجريا، بيروت، منشورات دار الحياة.

3- الأمريكي. لثروب ستودارد حاضر العالم الإسلامي نقله إلى العربية: عجـاج نـويهض، تعليـق وتوضيح: شكيب أرسلان، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4، 1973م.

4- ابن فوده عبد الله بن محمد ضياء التأويل في معاني التنزيل (مخطوط) نسخ محمد الـصديق بـن محمد بن يونس الغدامسي الدراوي، سنة 1265 هـ.

5- ابن فوده عبد الله بن محمد ضياء التأويل في معاني التنزيل، القاهرة، نشر أحمد أحمد أبوالسعود، وعثمان الطيب، مطبعة الاستقامة، ط 1، 1961م.

6- ابن فوده عبدالله بن محمد كفاية أهل الإيمان في تفسير القرآن، بيروت، توزيع المكتبة الحديثة.

7- ابن منظور محمد بن مكرم لسان العرب، بيروت، دار صادر للطباعة والنـشر، ودار بيـروت للطباعة والنشر، 1956م.

8- حاجي خليفه مصطفي بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه وطبعه وتعليق حواشيه وترتيب ديوله، محمد شرف الدين بالتقايا، ورِفْعت بليكة الكليسي، أعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى، بيروت.

9- شلبي أحمد مصطفي موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، القاهرة، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية، ط 1.

10- غربال محمد شفيق، المشرف على الموسوعة العربية الميسرة دار الشعب، ومؤسسة فـرانكلين للطباعة والنشر، سنة 1959م. نسخة مصورة عن طبعة 1965 م. سنة 1972م.

11- غلادنت شيخو أحمد سعيد حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا، القاهرة، دار المعارف للطباعة والنشر 1982م، توزيع المكتبة الإفريقية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.manaraa.com

12- الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب القاموس المحيط بحاشية الهروينى، مـــصر، نـــشر وتوزيع المكتبة التجارية الكبرى، طبع دار المأمون، ط 4، 1938م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

1-Dictionary of African Historical Biography Mark . R . Lipschutz & R . Kent Rasmussen . London . Heinemann Ibadan . Nairobi . Lusaka .

2-A history of Hausa Isiamic Veerse . By : Mervyn Hiskett . London Wcie 7hp . 1975 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com www.manaraa.com